منطلقات التفكير في الدرس الإعجازي
في كتب الدراسات القرآنية

محمد مقدم
المركز الجامعي- غليزان-

مقدمة

يعد البحث في مسائل الإعجاز القرآني أحد أبرز مظاهر عناية علماء الإسلام بالنص القرآني، واهتمامهم بأساليبه التي نزل بها باللسان العربي المبين، بيد أن عديد الدراسات قديما وحديثا لا تكاد تشير إلى الأسرار الكامنة وراء عناية المسلمين بالقرآن الكريم، وعدم إغفال أبسط الجزئيات ذات الصلة بهذا النص الإلهي المعجز، وانطلاقا من هذا يمكننا طرح جملة من التساؤلات أبرزها: ما هي أسباب ودواعي البحث في قضايا الإعجاز القرآني؟ ما هي أبرز ملامح الدرس الإعجازي في حقل الدراسات القرآنية؟ وهل يمكن الوقوف على الأسباب الكامنة وراء اشتغال كثير من الطوائف بمثل هذه الأبحاث والدراسات؟ تلك أهم التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها في هذا البحث.

المبحث الأول
المسار التاريخي للتأليف في الإعجاز

إن فكرة الإعجاز قديمة وموغلة في القدم، إذ أنّ أصولها ترجع إلى أوائل نزول القرآن، فحين نزل جبريل الأمين بالقرآن الكر يم على خاتم المرسلين سيدنا محمد ε كان العرب آنذاك قد بلغوا القمة في الفصاحة والبيان، ومع ذلك نجدهم لما سمعوه وتذوقوه أصابتهم الدهشة، ووقفوا أمام روعة بيانه حيارى مذهولين، فكان إعجازه عند هؤلاء القوم ينفذ إلى أحاسيسهم ومشاعرهم فيستولي عليها.

لقد كان هذا التأثير في مشركي قريش عاما، فلم ينج منهم كبير ولا صغير، ولا رئيس ولا مرؤوس، تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم، بل لقد كان في رؤسائهم أشد وفي فصحائهم وبلغائهم أقوى من عامتهم، لأنهم أدرى بفنون الكلام وأساليبه"[1].

لقد سحر القرآن الكريم هؤلاء العرب منذ نزوله، لذلك نجدهم- لما تسلّل إلى شغاف قلوبهم —اعترفوا بمزيته وإعجازه وآمنوا به، بل كانوا بعد ذلك من أشد المنافحين عنه، ولعل هذه القصص التي سأوردها تكون خير دليل على مدى أثر القرآن الكريم في نفوس أولئك العرب:

– فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر حديثا طويلا عن إسلامه، وفيه : أن أنيسا أخا أبي ذر ذهب إلى مكة ثم عاد فقال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك[2]، يزعم أن الله أرسله قلت: فما يقول الناس؟. قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْرَاءِ الشعر[3] فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون"[4].

– وروى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه قال: "سمعت النبي ε يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي "[5].

– وكذلك ما روى من قصة إسلام سيدنا عمر وأنه رقّ قلبه وأسلم حينما سمع القرآن الكريم، فقد خرج عمر متوحشا بسيفه يريد رسول الله ε ورهطا من أصحابه قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، وفي الطريق لقيه نعيم بن عبد الله وكان يكتم إيمانه فسأله عن وجهته فأخبره بغرضه، فحذّره بني عبد مناف، ودعاه أن يرجع إلى بعض أهله: ختنه سعيد بن زيد بن عمر وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد فقد صبآ عن دينهما.

فذهب إليهما عمر وهناك سمع خبّاب بن الأرت يتلوا عليهما القرآن الكريم، فاقتحم الباب، وبطش بختنه سعيد وشجّ أخته فاطمة...وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، فاستحلفته أن يردّها سالمة وطلبت إليه أن يغتسل ففعل، فلما أخذ الصحيفة قرأ فيها صدر السورة:**(طه مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القران لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى)**[6].

ثم قال –أي سيدنا عمر–:"ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه فقال له: يا عمر "والله إنّي لأرجوا أن يكون الله خصّك بدعوة نبيه، فإنّي سمعته أمس وهو يقول: "اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب"فالله الله يا عمر فقال له عمر: فدلّني يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم، فدلّه فذهب إليه فأعلن إسلامه"[7].

وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلا أسيفا إذا قرأ بكى شوقا وخوفا"[8].

وكان عبد الله بن عمرو يكثر البكاء، ويغلق عليه بابه حتى رمضت عيناه"[9].

إلى غير ذلك من الآثار ممّا لا يسع المجال لذكرها، كما يخبرنا القرآن الكريم أن أهل الكتاب حينما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع يقول الحق سبحانه: **(وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرِفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)**[10] ويقول تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)**[11].

كما حكى لنا القرآن موقف الجن حين سمعوه وعادوا إلى قومهم مؤمنين، ويصفونه بالعجب والهداية إلى الرشد قال تعالى: **(وَإِذَ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مّنَ الْجِنّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ أَنْصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلُّواْ إِلَى قَوْمِهُم مُّنْذِرِينَ قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)**[12].

إن هذا الأثر العميق الذي تركه القرآن الكريم في نفوس هؤلاء دليل على أنهم كانوا يتذوقون القرآن الكريم، وأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أن وجه الإعجاز فيه هو طريقته في تخير الألفاظ وانتقائها ووضعها في مكانها اللائق بها، وفق ما يتطلبه المعنى حتى تحدث الجملة صورة فنية رائعة، هذه الصورة هي التي يتشكل بها البيان ويسموا بها أسلوب على أسلوب، ويتفاضل من أجلها أديب على أديب، وهذه الطريقة أو هذا التخير هو الذي سماه الجرجاني "بالنظم".

"إذن فخصيصة الإعجاز القرآني تكمن في بنائه الكلامي، باعتباره الوجه الذي ينفرد به دون بقية الكتب السماوية، يشهد بذلك القرآن الكريم نفسه بإحكام بنائه وبتنزيله المتين، ويشهد بذلك تحديه للعالمين أن يأتوا بمثله في موضوعات مفتريات، إضافة إلى الدال التاريخي والاجتماعي للعرب الذين تنزل فيهم، وبروز مؤثر الفصاحة في

كيانهم النفسي الثقافي عامة ومن سنن الإعجاز في الرسالات السماوية دحض ما يعتبره المخاطبون خارقا عندهم بحجة من معدن حجتهم تفوق طاقتهم وتقعد بهم دون مرقى الإعجاز"[13].

لقد أدرك المسلمون بفطرهم السليمة أن إعجاز القرآن إنما يكمن في نظمه الذي وصل إلى حد الإعجاز وخرج عن طوق البشر، ولم يكونوا بحاجة إلى وسائل تعينهم على إدراك هذه الحقيقة فظل الأمر على ما هو عليه، وانتهى عصر صدر الإسلام ولم تلق قضية الإعجاز معارضة تُذْكَرْ، لأن القوم عربٌ معتزون بعروبتهم ومسلمون معتزون بإسلامهم لأنهم خرجوا به منتصرين ضد أعداء كثيرين.

وكانت دلائل الإعجاز البياني تدرك بالذوق الأصيل، والطبع العربي السليم أما بعد هذا العصر فتغيرت الحال وفسدت الملكات، ودخل في دين الله من يضمر الكفر ويظهر الإسلام، واحتاج المسلمون إلى تدوين المقاييس التي يتفاضل بها الكلام في سعي منهم للرد على شكوك المشككين وطعون الطاعنين "فانتقل الإعجاز من مرحلة التذوق الفطري إلى مرحلة التذوق العلمي، الذي يجب أن تسبقه دراسة واسعة لأساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز في القرآن العظيم، وهذا يعني أن الإعجاز الذي كانت تدركه أكثرية العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين، هي التي بيدها وسائل التذوق الفني، وبهذا كثرت التساؤلات والاستفهامات حول إعجاز القرآن الكريم، فيم وقع الإعجاز؟. وفي أي من القرآن؟. وما هي وجوه هذا الإعجاز؟. ولماذا صار القرآن معجزا؟. وهل هو معجز بلفظه أومعناه أو بما يشتمل عليه من المغيبات أو التشريعات؟"[14].

إلا أن هذه التساؤلات لم تلق في بداية الأمر –أقصد في المرحلة الأولى لظهور الدراسات القرآنية– أجوبة كافية شافية بل كان جل اهتمام تلك الدراسات منصبا إذّاك "حول الجانب اللغوي في القرآن واعتمدت على تفسير الغريب منه، مستعينة في ذلك بالشعر العربي، وكان أبرز الذين اهتموا بذلك ابن عباس في تفسيره، وأبو عبيدة في كتابه "مجاز القرآن" والفراء في كتابه "معاني القرآن".

وتأتي المرحلة الثانية بظهور الجاحظ الذي اهتم بالصور البيانية، وعمد إلى توضيحها بعقلية اعتزالية، ويصاحبه في ذلك ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" حيث أخذت الآيات تُفَسَّرُ عن طريقهما على أساس الفنون البلاغية، كفن الاستعارة والتشبيه والكناية وغيرها لا حسب الصور أو الموضوع"[15].

ولقد تزامنت هذه المرحلة الثانية، مع تكون المذاهب الإسلامية وبروز الفرق الإسلامية مسلحة بعلم الكلام "وكانت بيئتهم من أنشط البيئات الأدبية والبلاغية التي اهتمت بهذا اللون من المباحث، وخاصة بيئة المعتزلة[16] التي بادرت إلى تأليف الكتب وجمع المصنفات في ذلك منذ فترة مبكرة"[17]. والتي ظهر بظهورها أول كلام علمي منظم في الإعجاز"[18].

لقد أحصت المصادر التاريخية عددا كبيرا من مؤلفاتهم في ألوان متعددة من الدراسات القرآنية، من ذلك:

– كتاب واصل بن عطاء في "معاني القرآن" كما كتب عمرو بن عبيد كتابا في التفسير نقله عن الحسن البصري. ووضع محمد بن المستنير بن أحمد بن علي المعروف بقطرب عددا من المصنفات منها كتاب "معاني القرآن" و"إعراب القرآن" و"الرد على الملحدين في متشابه القرآن"، و"مجاز القرآن".

– ووضع بشر بن المعتمر كتابه "متشابه القرآن" ولسعيد بن مسعدة الأخفش كتابا في "المعاني".

– ووضع الجاحظ عددا من المؤلفات منها كتابه في "نظم القرآن" وكتاب في "آي القرآن" وكتاب في "خلق القرآن" وكتاب "المسائل في القرآن"[19].

– كما ألف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي رسالة "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" وهو أول كتاب فيما يذكر الباحثون يحمل اسم الإعجاز "[20].

– ولابن الإخشيد كتاب في "نظم القرآن "ولأبي الحسن علي بن عيسى الرماني رسالة "النكت في إعجاز القرآن"، وللقاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي كتابا سماه "المغنى في أبواب التوحيد والعدل" أفرد منه الجزء السادس عشر للكلام في مسألة الإعجاز وسمّاه "إعجاز القرآن"[21].

أما أهل السنة وخاصة الأشاعرة[22]، فقد لعبوا دورا مهمّاً في بيان إعجاز القرآن.

– فأبو الحسن الأشعري ممّن تكلم في هذه المسألة[23] ومن أهم مؤلفاتهم–الأشاعرة– في الإعجاز "بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي وكتاب "إعجاز القرآن" للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، كما تعرض القاضي لمسألة الإعجاز في كتابه "نكت الانتصار".

– وألف الإمام عبد القاهر الجرجاني الأشعري كتابه "دلائل الإعجاز" كمقدمة لفهمه بإدراك أسرار العربية، فاستفرغ طاقته في عرض أساليبها ونحوها وملاحظها البلاغية من حيث هي الهادية إلى دلائل الإعجاز، ومع الدلائل قدم الجرجاني "الرسالة الشافية" التي عالج فيها قضية الإعجاز على طريقة المتكلمين"[24].

وبعد الإمام الجرجاني ظهرت كثير من كتابات العلماء، من ذلك كتاب الزمخشري "الكشاف في تفسير القرآن وبيان إعجازه" والذي استفاد كثيرا مما ذكره سلفه الجرجاني، إلا أنه ومع ذلك "لم يكن صدى لعبد القاهر يردد ما قاله ويطبق على أساسياته، بل أضاف وأصّل، واشتق لنفسه منهجا ذاتيا يتسم بكثير من الحرية وكثير من الاستقلال"[25].

وكذلك تحدث عن الإعجاز ابن عطية الغرناطي في تفسيره"المحرر الوجيز" وفخر الدين الرّازي كذلك في تفسيره"مفاتيح الغيب"،كما كانت ثمرة إسهاماته في قضية الإعجاز كتابا مستقلا أفرده للبحث فيها أسماه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" والكتاب يعتمد في مجمله على ما كتبه عبد القاهر في كتابيه "الدلائل" و"أسرار البلاغة" كما يستفيد من غير عبد القاهر كالرماني والزمخشري والوطواط...

وهو ما جعل الدكتور شوقي ضيف يصف كتاب الرازي بأنه: "تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر في صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية، وتنحصر فروعها وأقسامها حصرا دقيقا"[26]. ونحده يربط أسباب ذلك بظاهرة الجمود الأدبي، وذكر أنّ "هذه الظاهرة نفسها – من التكرار ومن إجداب العقول ومن الجمود– نجدها تسري بين أصحاب البلاغة بعد عبد القاهر والزمخشري، فإذا هم لا يأتون بجديد في مباحثهم البلاغية، وإذا هم يقصرون عملهم فيها على تلخيص ما كتباه جميعا، وقد لا يوسع الملخص منهم ثقافته بقراءة كشاف الزمخشري ،فيكتفي بتلخيص عبد القاهر ،وهم سواء لخصّوه وحده، أو لخّصوا معه الزمخشري، فما أضافوا جديدا إلا تعقيدات شتّى مما قرأوه في الفلسفة والمنطق ...وكان من أوائل من عمدوا إلى هذا التلخيص والاختصار فخر الدين الرّازي، ثم تلاه السكّاكي فأوفى على الغاية من الإجمال الشديد، مع دقة الحدود والتعريفات والتقسيمات"[27].

وإذا كان حظ الرّازي من كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" التنظيم والترتيب والتركيز في كل ذلك على مسائل البلاغة، باعتبارها مدار الإعجاز القرآني، فإن تلك الحقيقة أومأ إليها محقق كتابه الدكتور بكري شيخ أمين من خلال مقارنة قام بها بين منهج الجرجاني والرازي، فذكر "أن الرازي كان في "نهاية الإيجاز" أشد إحكاما وأكثر دقة وأقوى ضبطا لمفردات بحثه وجزئيات موضوعه، من الجرجاني في كلا كتابيه "الدلائل" و"الأسرار" وإنه حين أخذ على نفسه في مقدمة كتابه أن يراعي الترتيب مع التهذيب،والتحرير مع التقرير، ويضبط أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية ، ويجمع متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، أنجز ما وعد وحقق ما تعهد، ولولا ما أخذ عليه من تلك التفريعات الكثيرة إذا لكان "نهاية الإيجاز" منافسا لكتابي الجرجاني، وحائزا تقدير العلماء والدارسين المعاصرين، كما حاز كتابا "الدلائل" و"الأسرار"[28].

والحقيقة أنه بدءًا بالرازي بدأت مرحلة جديدة يلاحظ فيها "أن حركة الإبداع العربي في التأليف عامة، وفي مجال الإعجاز القرآني خاصة، قد أصيبت بنوع من التوقف استحال بعد إلى نوع من الجمود، فكثرت الشروح في أصل واحد، وتواترت الحواشي على الشروح واستبدت المختصرات بالمطولات، وانصرف المؤلفون عن المجاهدة في سبيل الخلق الحقيقي إلى لون من ألوان الاسترخاء الفكري الذي يعيش على تراث السابقين[29].

وهكذا دخلت قضية الإعجاز مرحلة الجمود من حيث الكشف عن مضامين جديدة، فقد قال السابقون كل شيء، حللوا واستوعبوا وناقشوا، فلم يدعوا مجالا لمن جاء بعدهم ليضيف جديدا يذكر، فلو ألقينا نظرة فاحصة على آراء اللّاحقين ممن تناولوا أمر الإعجاز كالقاضي عياض في "الشفا"، والسكاكي في "المفتاح"، وابن أبي الأصبع المصري في كتابيه "تحرير التجيير" و"بديع القرآن"، وابن يحي العلوي في "الطراز" والأصفهاني في "التفسير الكبير"، والزركشي في "البرهان"، والسيوطي في"الإتقان"و "معترك الأقران" وغيرهم ...لو ألقينا نظرة فاحصة على آرائهم لوجدناها صدًى وتكراراً لآراء السابقين سردوها كما هي، أو تصرفوا فيها بالتلخيص والتهذيب والتوفيق، وكثير منهم ناقش ونقد وأبدى رأيه موافقا لتلك الآراء أو رادا لبعضها.

أما الباحثون المحدثون ممن لهم عناية بالدراسات القرآنية فقد نظروا إلى القرآن الكريم نظرة شاملة فتعددت وجهات نظرهم، وهي وجهات نظر تعبر عن اجتهادات شخصية تضاف إلى جهود السابقين ولكنها لا تكوّن مدارس ولا مذاهب، ومن إسهامات أولئك الألوسي في تفسيره "روح المعاني"، وحجة الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي في قضية الإعجاز والتي ضمنها كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، وكذا الإمام عبد العظيم الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان في علوم القرآن"، وسيد قطب في "التصوير الفني في القرآن"، وعائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ في "الإعجاز البياني"، والدكتور عبد الكريم الخطيب الذي تحدث عن جهود العلماء في قضية الإعجاز في كتابه "الإعجاز في دراسات السابقين".

إن جل الدراسات حول قضية الإعجاز في العصر الحديث لم تخرج عن نطاق المفاهيم القديمة، بل كان عمل الباحثين إزاء تلك الآراء هو فلسفتها وصياغتها بأساليب حديثة وبتعبيرات فنية رقيقة. ولكن تبقى جهودهم مع ذلك سلسلة ذات أهمية في حلقات البحث في مكنونات وأسرار هذا الكتاب الخالد لا تنقضي عجائبه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الثاني
دواعي وأسباب التأليف في الإعجاز

إن الحديث عن حركة التأليف في الإعجاز لا يمكن فصلها عن ذلك – المسار التاريخي الذي تحدثنا عنه سلفا — والذي يرسم لنا بوضوح بوادر ظهور بدايات أعمال منظمة متخصصة ذات صلة بالإعجاز.

كما لا يمكن الحديث عن التأليف في الإعجاز إلا باستصحاب العمل الجبار الذي قامت به طوائف شتى في الساحة الإسلامية —قديما– والذي جنينا ثمراته في هذا الكم الهائل من شتى التصانيف في الدراسات القرآنية عامة وما له علاقة بالإعجاز القرآني خاصة، فقد نشأت حركة علمية دؤوبة على أنقاض مجهودات السابقين "ولقد قامت هذه الحركة على جهود علماء الكلام وخاصة المعتزلة ثم الأشاعرة وعلى فكر قليل من علماء اللغة والفقه وكان هدفها:

تفنيد دعاوى المتجرئين على نفي الإعجاز من أصحاب الديانات والنحل غير الإسلامية، ودعاوى الشيعة الإمامية الذين نسبوا إلى القرآن التغيير في بعض آياته والنقص عما نزل عليه[30].

فمن أهم أسباب التأليف في الإعجاز الدفاع عن الدين ورد الشبه والمطاعن عن القرآن الكريم فقد رأينا كثيرا من الملحدين المتشككين، وأعداء الإسلام بصفة عامة يثيرون حول القرآن عددا من الشبه والمطاعن[31] بغية الحط من قدره والنيل من درجته الرفيعة ومكانته السامية في الإعجاز، وهذا ما جعل الدافع لدى العلماء للاهتمام ببيان القرآن "كان في أول مرة بقصد الدفاع عن الكتاب المقدس ضد نزعات الشك الفلسفية، ورد التناقض والمطاعن التي رمي بها الكتاب"[32] ولعل هذا الأمر هو الذي جعل ابن قتيبة يفصح عن سبب تأليف كتابه "تأويل مشكل القرآن" وأنه جاء دفاعا عن الأسلوب القرآني ضد ما أثير حوله يقول: "فأحببت أن أنضح عن كتاب الله وأرمي من وراءه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام متبع على لغات العرب"[33].

إلا أن جهود –العلماء– لم تقف فقط عند جانب الأسلوب، بل تعدته إلى جانب آخر وهو ما يتعلق بالمضمون. "ذلك أن تلك الشبه والمطاعن التي أوردوها تنحصر في جانبين: جانب يتعلق بالمضمون فقد رددوا مزاعم بعض المشككين في أن في القرآن تناقضا، أو اختلافا بين بعض معانيه وأفكاره، وساقوا مجموعة من الآيات توهم النظرة السطحية إليها ذلك الادعاء، وهنا تصدى علماؤنا حيث كشفوا هذا الزيف وبينوا أنه لا تناقض ولا اختلاف. وكيف يقع ذلك وقد مدح الله القرآن بنفي أي اختلاف أو تناقض فيه، بل إن ذلك وجه من وجوه الإعجاز...وفي الجانب الذي يتعلق بالشكل والأسلوب فقد راح علماؤنا يردون تلك الشبه التي وجهت إلى أسلوب القرآن وشكله في التعبير.

وهذا الجانب الإعجازي هو جانب البلاغة الذي يعتبر الحديث فيه على غاية من الأهمية في تناول آيات القرآن الكريم[34] ولقد استلزمت ردود العلماء على هذه المطاعن أن تكون على شقين:

أولهما: كلامي يرد على الطاعنين بالرأي والحجة ويكشف عن زيف الدعاوى الباطلة، مستعينا بالمعارف الواسعة والمنطق النظري والأدلة النقلية ليثبت صحة النص القرآن المنزل وسلامته من النقص والتحريف تأكيدا لحجة النبوة

ثانيهما: يلجأ إلى النص المنزل يستكشف جوانب الإعجاز فيه من إخباره بالغيب وبراءته من الاختلاف والتناقض، وروعة النظم في أسلوبه"[35] ولا شك أنه كان في هذه الردود خدمة عظيمة للقرآن الكريم وبيان إعجازه ذلك "أن جانب هدم الدعاوى خدم الإعجاز بصورة تتساوى مع الجهود التي بذلت في الكشف عنه والإشارة إلى مواطنه"[36].

ومن بين أهم الأسباب كذلك التي كانت وراء التأليف في الإعجاز هو إثبات نبوة النبي ε وأن معجزته هي القرآن الكريم. وقد كان الدافع إلى ذلك ملحا خاصة بعد حركة الامتزاج بين الشعوب الإسلامية وشعوب البلدان المفتوحة وتسرب ثقافات تلك الأمم إلى الساحة الإسلامية فأثيرت كثير من المناقشات "وكان في مقدمة المسائل التي تستدعي الجدل والمناقشة، مسألة نبوة النبي ε ومسألة تحدي القرآن للعرب في أن يأتوا بمثله، ومسألة أنه وحي منزل من عند الله لا كلام ألفه الرسول وشحذ المسلمون عقولهم لإيجاد الحجج العقلية التي تؤيدهم وتقنع خصومهم أو تسكتهم فلم يجدوا أدل على صدق نبوة النبي من القرآن فاعتمدوا عليه وقالوا بإعجازه، وجعلوه مساويا لمعجزات سائر الأنبياء"[37].

ولذلك نجد المعتزلة في تناولهم لمباحث الإعجاز بغية إثباته اتبعوا ثلاثة طرق وهي:

أولا: تفنيد أكاذيب المغرضين.

ثانيا: إثبات نبوة النبي ε وصدق معجزاته وبخاصة القرآن الكريم: وذلك بعقد المجالس التي تعقد فيها المناظرات والمناقشات العلمية القائمة أساسا على دحض حجج الخصم وإفحامه.

ثالثا: إكمال الجانب الكلامي في إثبات الإعجاز بآخر بلاغي معتمدين فيه أساسا على التوسع في التأويل والمجاز متوسلين بتلمس نواحي الذوق ومواطن الجمال، والدقة في التعبير مع البعد عن التكلف، مراعين في ذلك الأثر النفسي في المستمع أو القارئ، وقد خلفوا لنا تراثا ضخما في بيان الإعجاز وفي تفسير القرآن وفي أساليب البلاغة"(38).

وهذا المقصد نفسه هو الذي جعل الباقلاني يعقد فصلا خاصا في كتابه "إعجاز القرآن" للدلالة على نبوة النبي ε وأن معجزتها القرآن. يقول فيه: " الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا ε بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة"(39).

والباقلاني عقد هذا الفصل وتحدث فيه عن نبوة النبي ε وأنها بنيت على معجزة القرآن وذلك لأن المعتزلة لمن تعتمد معجزات رسول الله ε أصلا في إثبات نبوته. "فإثبات نبوته ε إنما تعلم بعد العلم بنبوته، لأن ثبوت ذلك فرع على ثبوت النبوة"، "وجعلوا هذه المعجزات مؤكدة، وزائدة في شرح الصدور فيمن يعرفها من جهة الاستدلال"(40).

ثم تحدث عن وجه كون القرآن معجزة النبي ε بخلاف باقي المعجزات الأخرى فيقول : "فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول"(41).

فمسألة نبوة النبي ε كانت أيضا أحد أهم الدواعي للتأليف في الإعجاز وقد اتحدت الغاية وتوحد القصد بين المدرستين – المعتزلة والأشاعرة – وإن تعددت الأساليب والوسائل، ولكنها تبقى دوما جهودا قائمة على أساس الدفاع عن العقيدة الإسلامية بوجه عام وإثبات وحدانية الله تعالى ونبوة نبيه محمد ε ثم بيان إعجاز القرآن الكريم.

وهذا هو السبب الثالث الذي لا يقل أهمية عن سابقيه والذي يعد قطب الرحى في جميع الدراسات المتعلقة بالإعجاز، ذلك أن توجه العلماء كان منصبا أيضا إلى ناحية معرفة كنه الإعجاز القرآني وسماته وخصائصه. وعلى الرغم من أن بداية الدراسات في هذا الإطار كانت "متضائلة خجلة مقصورة على محاولة فهم القرآن، ثم أخذت تفقد الخجل، ويقوى ساعدها ويتسع ميدانها، حتى شملت في مدة وجيزة جميع العلوم التي عرفها العالم القديم فيما اتصل بالقرآن من علوم كان أولها ظهورا، وما ابتعد عنه كان من آخرها ... وليس من شيء أكثر صلة به من محاولة فهمه (القرآن) بإدراك غريبه ومشكله، فتفسير غريب القرآن ومشكله أولى الحركات العلمية التي رآها العرب...فكأنما جمعت هذه المحاولات الأولى بين التفسير الغريب والمشكل، والإشارة إلى أصله في اللغات القبلية والأجنبية وكانت هذه المحاولات العين التي استقى منها اللغويون بعد وسبحوا فيما خرج منها من جداول أصبحت أنهارا"(42).

هذه الدراسات –كما نرى– كانت لغة القرآن وأسلوبه الشغل الشاغل لعلماء اللغة والبيان خاصة في القرن الثالث الهجري ومنها تفرعت بحوثهم وانتظمتها جداول ثلاثة –كما يقول الدكتور زغلول سلام : "أما الجدول

الأول فهو التفسير بالمأثور...وعرف أصحاب هذا النوع من الدراسات القرآنية باسم المفسرين أو أصحاب التفسير...

أما الجدول الثاني فهو التفسير اللغوي النحوي، وكان يمد هذا الجدول علماء اللغة والنحو ببحوثهم واتخذوا من غريب ألفاظ القرآن ولغته وتراكيبه ميدانا لهم...

أما الجدول الثالث يجري ببحوث البيان وفنون التعبير المختلفة في القرآن، أو بالمعاني التي تجري وراء النظم القرآني، وصلة هذا النظم بها وهذه الناحية كان لها أثر كبير في توجيه الدراسات البيانية في الأدب على ضوء ما توصل إليه العلماء في أسلوب القرآن، والقرآن كتاب عربي مبين لكنه كان جديدا في أسلوبه معجزا وهو مع ذلك لم يخرج عن أساليب العرب وعاداتهم في نظم الكلام، وكان طبيعيا أن يجمع أساليب العرب في التعبير من قواعد فنية وتركيبية ففيه الحقيقة، وفيه المجاز، وفيه الكناية وغيرها من أساليب العرب ونمطهم.

ومع هذا التشابه الظاهري بين أساليب العرب في نثرهم وشعرهم بقيت للقرآن ميزة جعلته المثل الأعلى للبلاغة العربية عند جماعة العلماء في الأدب والبلاغة، بل إن بعضهم يرى أن نظم القرآن خارج عن فنون القول عندهم وعن صنوف بلاغاتهم، ومن هنا نشأت دراسة البيان القرآني التي تفرعت منها دراسات الإعجاز من بعد، وقد حاولت هذه الدراسات أن تصل إلى رأي في كنه البيان القرآني والسر في بديع نظمه وعجيب رصفه وبدأت محاولات شتى في القرن الثالث الهجري انتهت بقيام علم مستقل في القرن الرابع هو "علم إعجاز القرآن" ثم تطورت دراسات البلاغة وانفصالها وتأثرها بدراسات الإعجاز عامة"[43].

وأيا كان تعدد الأسباب وتنوعها فإن ذلك كله عاد بالنفع على تراثنا الإسلامي، وكان وراء ذلك الكم الهائل الذي خلفه علماؤنا من تراث يتصل بالدراسات القرآنية عامة أو بقضية الإعجاز القرآني على وجه الخصوص.

الخاتمة

من خلال العرض السابق يمكننا أن نخلص إلى ما يلي:

– إن الدراسات حول الإعجاز كانت تساير روح العصر، وتتأثر في معظمها بثقافات أصحابها.

– كما أن تلك الدراسات تخضع كغيرها لعوامل التطور ثم الاستقرار ثم الجمود، فقد بينا أن تلك الدراسات كانت مجرد أفكار مبثوثة في ثنايا بعض الكتب لتتحول بعد مرور الوقت إلى نظرية متكاملة المعالم.

– إن الدرس الإعجازي على وجه الخصوص كان جذوة حركة النقد الأدبي عند العرب، والباعث الرئيسي الموجه لها وللدراسات الأدبية والبلاغية عامة، فالبلاغة العربية وجدت لها بذور في العصر الجاهلي، ولكن هذه البذور نماها البحث والجدل حول القرآن وإعجازه عن طريق البحث عن مواضع الإعجاز في القرآن الكريم وتذوق بلاغته.

الهوامش

1- الإعجاز في نظم القرآن، السيد شيخون، ص10.

2- أي مثلك، يعبد الله.

3- أقراء الشعر، طرقه وبحوره.

4- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، ص 963/962. تحت رقم :2473.
5- رواه البخاري في كتاب المغازي والسّير ص981 تحت رقم:4023. ورواه مسلم في كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح، ص177 تحت رقم: 463.
6- سورة طه الآيات 1حتى 4.
7- الطبقات الكبرى، لابن سعد ج03، ص267، وانظر السيرة النبوية، لابن هشام ج01 ص369 وما بعدها. وانظر الإصابة في تمييز أسماء الصحابة، لابن حجر العسقلاني في ترجمة عمر بن الخطاب ج4 ص485. وفاطمة بنت الخطاب ج8 ص271.
8- التذكار في أفضل الأذكار، للإمام القرطبي، ص127، تحقيق ثروت محمد نافع، دار التوحيد.
9- المصدر نفسه، ص127.
10- سورة المائدة، الآية 83.
11- سورة الإسراء، الآيات 107 حتى 109.
12- سورة الأحقاف، الآيتان30/29.
13- التحليل الأسلوبي ومقاييسه في "الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي"، د الأخضر الجمعي، مجلة الموافقات،ع04 ص205، جوان 1995م.
14- الإعجاز في نظم القرآن، السيد شيخون، ص13.
15- الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ص50.
16- المعتزلة فرقة إسلامية شهيرة ظهرت في مطلع الثاني للهجرة في مدينة البصرة أسسها واصل بن عطاء بعد أن اختلف هو وشيخه الحسن البصري في قضية مرتكب الكبيرة لهم أصول خمسة "التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"وتفرقت المعتزلة إلى فرق كثيرة. انظر الملل والنحل، الشهرستاني، ج1 ص60/35. وتاريخ المذاهب الإسلامية، أبي زهرة، ص162/125. وقاموس المذاهب والأديان، د حسين حمد، ص193/191.
17- البلاغة عند المفسرين حتى القرن الرابع للهجرة، رابح دوب، 457.
18- فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص.40
19-البلاغة عند المفسرين، رابح دوب، ص458 وما بعدها .
20- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، سيد عمار،ص33.
21- أنظر الفهرست، ابن النديم، ج1 ص64 ،تحقيق د شعبان خليفة ووليد محمد العوزة، ط العربي للنشر والتوزيع القاهرة، 1991م.
22- فرقة إسلامية أنشأها الإمام أبو الحسن الأشعري في مواجهة المعتزلة وإغراقهم في مذهبهم العقلي، وكانت آراءه وسطا بين أصحاب العقل وأصحاب النص، ناصر الفقهاء والمحدثين ورد على المعتزلة وأشهر علماء الأشاعرة الباقلاني والغزالي. انظر الملل والنحل، الشهرستاني، ج1 ص75/66. وتاريخ المذاهب الإسلامية، ص175/163. وقاموس المذهب والأديان، ص41/38.
23- أنظر فكرة الإعجاز لنعيم الحمصي، ص 41.
24- نظرية الإعجاز القرآني، سيد عمار ص 34.
25- المصدر نفسه، ص35.
26- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص275.
27- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص272.
28- مقدمة تحقيق كتاب نهاية الإيجاز، بكري شيخ أمين ص47.
29- الإعجاز القرآني من الوجهة التاريخية محمد أحمد العزب، ص51.دار المعارف، دت.
30- نظرية الإعجاز القرآن أحمد سيد عمار، ص32.
31- أنظر نماذج عن هذه الشبه في تأويل مشكل القرآن ص25/19 وبيان إعجاز القرآن للخطابي ص36 وما بعدها.
32- أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص206.
33- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص10.
34- ينظر البلاغة عند المفسرين، رابح دوب، ص467/465.
35- نظرية الإعجاز القرآني، سيد عمار، ص33/32.